

الهوية وعلاقتها بتعلم اللغة العربية:

د.عبد الرحمن بودرع

كلية الآداب تطوان

يُؤلّفُ المتحدّثون بالعربيّة أمةً مستقلّةً ذاتَ مُعتقَداتٍ بيّنةٍ متميّزةٍ، وذاتَ ثقافيّةٍ وحضاريّةٍ ورقعيّةٍ جغرافيّةٍ واسعةٍ، وتُعدُّ اللغةُ العربيّةُ مؤلّفاً رئيساً من مؤلّفاتِ الهويّةِ العربيّةِ لأنّها تُوحّدُ متعلّميها والنّاطقينَ بها اجتماعياً وسياسياً وثقافياً.

وإذا كانت اللّغةُ بهذه المنزلةِ وكانت أمّتها حريصةً عليها، ناهضةً بها، مُتسعةً فيها، مُكبّرةً شأنها، فما يأتي ذلك إلا من كونٍ متعلّميها والنّاطقينَ بها والمُفكّرينَ بها يملكونَ سيادتهم واستقلالَ قرارهم، أمّا إذا كان أهملَ المجتمعَ وأصغَرَ أمرها وهوّنَ قيمتها وأثرَ عليها غيرها من اللغات في التعليم والتداول والتفكير؛ فهذا مجتمع تابع لا متبوع، ضعيفٌ عن تكاليفِ السّيادة، لا يُطيقُ أن يحملَ تاريخه وميراثه، مُجتزئٌ ببعضِ حقّه، مُكتفٍ بضروراتِ العيش.

والتعليمُ السليمُ هو الذي يجعلُ اللغةَ الوطنيّةَ على رأسِ وسائلِ التعلّمِ والتواصلِ والتفكيرِ، أمّا الوضعُ في كثيرٍ من البلادِ العربيّةِ فقد طُبِعَ بالتردّدِ بينَ ماضٍ متأصلٍ في النفوسِ يُستلهمُ ويُستمدُّ منه التّمودجُ الأمثلُ في مشاريعِ التعليمِ والإصلاحِ الاجتماعيِّ والسياسيِّ، وحاضرٍ تُتلَمَسُ فيه سُبُلٌ أخرى ومَرجعيّاتٌ أجنبيّةٌ مُخالفةٌ للهويّةِ، لإعادةِ تَركيبِ الدّاتِ المُفكّكةِ، ولكنّ اضطرّبتِ عناصرُ إعادةِ تَركيبِ الهويّةِ باعتمادِ اللغاتِ الأجنبيّةِ الأداةِ الأولى أو الرئيّسةِ للتعليمِ والتواصلِ والتفكيرِ، اضطرّبتِ عمليّةُ صياغةِ الذاتِ الوطنيّةِ، واختلّتِ أداةُ إصلاحِ التعليمِ عندما اصطدمتِ بمشروعِ التعريبِ، تعريبِ المؤسّساتِ. هذا المشروعُ الذي أخفقَ في كثيرٍ من التجاربِ والمحاولاتِ، التي كانت تبوء بالفشلِ لأنها لم تؤمّن تحرراً للأمةِ، بل ظلّت الأمةُ وما زالت تُعاني تبعيّةً اقتصاديّةً وثقافيّةً، وتفرُّ من كلّ دعوةٍ إلى تعريبِ التعليمِ لتحريرِ الهويّةِ من التبعيّةِ.

أمّا اللغةُ العربيّةُ في ظلِّ أزمةِ الاستلابِ الخانقةِ فلم تفقدُ مركزيتها، على تفاوتٍ بين الدّولِ العربيّةِ، في التّربيّةِ والتّعليمِ، ونالها نصيبٌ كبيرٌ من النّماءِ والتّطوُّرِ، في معجمها ومُصطلحاتها وفي ميادينِ الكتابةِ الجديدهِ ومَجالاتِ الإبداعِ والمعارفِ الإنسانيّةِ، فها رصيدٌ كبيرٌ في مُعالجةِ مُعضلةِ الهويّةِ المُهدّدةِ، ولكنّ الأزمةَ الكُبرى والمُعضلةَ العُظمى في السّياسةِ التّعليميّةِ والتّخطيطِ اللّغوي.

أصبحت مسألة تعليم اللغة واستعمالها في العلم والتواصل والتفكير شركة بين أصحاب الفكر والعلم والتربية والتعليم والإعلام والاقتصاد والتقانة... فبات من الضروري المعرفة الشاملة بحضور المسألة اللغوية في المجالات كلها. وكل إهمال تخطيطي للمسألة اللغوية في التعليم سيؤدي إلى قطعية معرفية بين الأجيال وبين هويتهم الأصلية، ويربطهم حتماً بهويات أجنبية، وكلما ازداد تعلمهم بلغات أجنبية أضافوا امتيازاً إلى تلك اللغات ورقدوها وضمّنوا لها أسباب البقاء والاستمرار.

ويُضاف إلى ما سبق من عناصر الأزمة، ضعف تنمية اللغة العربية وضعف ربطها بالواقع من أجل النهوض به وتطويره، فما حَقَّقَه البحث العلمي الأكاديمي في مجال البحث اللساني خاصة، وفي مجال البحث المرتبط باللغة في جوانبها التعليمية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية بصفة عامة؛ لا ينبغي أن يظلّ أبحاثاً علمية نظرية مجردة، وإنما يجب استثماره في تنمية اللغة العربية وتطويرها بالاستعمال والتداول في الأسلاك التعليمية جميعها، لكي تتحقق ثمرة النمو اللغوي وانخراط اللغة العربية في سلك الحياة العلمية والعملية والاقتصادية والتعليمية، فتصبح منظومة فكرية معرفية تُبنى عليها التصورات والنظريات، ونسقاً ذهنياً تنطلق منه الرؤى والمواقف، ومؤسسة فاعلة مؤثرة في الفكر والفعل، وذلك قصد ترسيخ الوعي اللغوي للمتكلم العربي، وتركيز المسألة اللغوية في مخيلته، وربط اللغة وقضاياها بمسألة الهوية، والتأسيس بمركزية اللغة في كل تنمية ينشدها المجتمع¹.

فلا حديث عن التنمية البشرية من غير ربطها بسؤال الهوية، ولا حديث عن الهوية من غير ربطها باللغة الوطنية. وهكذا فسؤال الهوية سؤال في صميم الحديث عن التنمية البشرية، لوجود علاقة جدلية بين نسق الهوية ومكوناته اللغوية والدينية والثقافية، وبين سياسات التنمية الاقتصادية والاجتماعية...

وتُعدّ أسئلة اللغة حرجة لأنها تخصّ مجالات عديدة كسياسة التخطيط التربوي والتعليم والتفكير والثقافة والتواصل والاقتصاد والذاكرة والدين... ويحتاج تدبير شأن هذه الأسئلة وإعداد أجوبة ملائمة لها إلى رؤية شمولية واضحة متماسكة... فاللغة العربية تُعدّ وطناً للمعرفة والتعلم ومصنوعاً للهوية والشخصية العربية، شأنها في ذلك شأن اللغات الطبيعية التي لها رصيد علمي وثقافي وإسهام في تنمية المعارف البشرية وانخراط في بناء القيم الإيجابية.

¹ للتوسّع في هذا الموضوع، يُنظر بتصرف: عبد الرحمان يجوي، تنمية اللغة ولغة التنمية، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (مَعهد الدوحة)، ص: 1-2، مقال منشور على رابط المركز: www.dohainstitute.org بتاريخ 12 ديسمبر 2012.

ولا يمكن النهوضُ بلُغة من اللُّغات الطَّبِيعِيَّةِ إلا ضمنَ ثقافَةِ الأُمَّةِ التي تَتَدَاوَلُ هذه اللُّغة. ولا يُمكنُ النهوضُ بالعربيةِ إلا ضمنَ الخلفِيَّةِ الثَّقافيَّةِ للأُمَّةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ، بوَصْفِ هذه الخلفِيَّةِ محوراً أساساً تدورُ حولَه التَّنميةُ، وتنبوُّ اللُّغةُ الموقِعَ المركزيَّ في المنظومةِ الثَّقافيَّةِ لارتباطِها بالفكرِ والإبداعِ والعقيدةِ والتراثِ، والذي يسوِّغُ تناولَ اللُّغةِ في إطارِ المنظومةِ المعرفِيَّةِ الثَّقافيَّةِ أنَّها لا تنمو في فراغٍ، بل في مجتمَعٍ له تَخْطِيطٌ لغويٌّ أو سياسيٌّ خاصَّة في تدبيرِ الشَّأنِ اللُّغويِّ، مُجتمَعٌ له سياقُه الثَّقافيُّ وبُعدُه التَّاريخيُّ، وتناولُ اللُّغةِ بهذا المنهجِ تناولٌ جيِّدٌ لأنَّه لا يقف في هذا التَّناولِ على أساسِ تقنيٍّ مَحْضٍ خارجٍ عن سياقِ المُجتمَعِ المؤثِّرِ، وسياسَتِه اللُّغويَّةِ.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ مناهجَ التَّعليمِ في البلادِ العربيَّةِ كانت قبلَ دخولِ الاستعمارِ تعتمدُ على تَخْفِيزِ القرآنِ الكَرِيمِ والمُتونِ اللُّغويَّةِ والشَّرعيَّةِ والمنطقيَّةِ، وعلى تَدْرِيسِ المُصنَّفَاتِ الكُبرى، إلى أن يتخرَّجَ طالبُ العلمِ مؤهلاً للتدريسِ والقضاءِ والفتوى، والتأثيرِ في القَراراتِ السياسيَّةِ والعلميَّةِ، وكانت مؤسساتُ التَّعليمِ تُلقِّنُ العُلومَ في المدارسِ والرِّباطاتِ والزَّوايا والمساجِدِ، فاكْتَسَى العلمُ بذلك طابعَ المَعْرِفَةِ الشَّعبيَّةِ المُتاحةِ لجميعِ الفئاتِ المؤهَّلةِ للتلقِّي. وقد أسهَمَ هذا الواقعُ في نشرِ اللُّغةِ العربيَّةِ على صَعِيدِ البلادِ العربيَّةِ، ولكنَّ هذه القيمَ الثَّقافيَّةِ أخذت تتلاشى كلِّما ازدادَ تمكُّنُ النموذجِ الغربيِّ والحداثةِ الغربيَّةِ من الحَيَاةِ العربيَّةِ في جوانبِها المُتعدِّدةِ السياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ والتَّعليميَّةِ والثَّقافيَّةِ واللُّغويَّةِ؛ فانتقلَ التَّعليمُ من مناهجِ أصيلَةٍ تُدرِّسُ فيها العربيَّةُ والعُلومُ الشرعيَّةُ والعُلومُ الطَّبِيعيَّةُ والرياضيَّةُ الموروثةُ عن العلماءِ العربِ، إلى مناهجِ عصريَّةٍ تُدرِّسُ فيها العُلومُ بالألغابِ الأجنبيَّةِ، وتغيَّرتِ المفاهيمُ العلميَّةُ والعملِيَّةُ التي كانت سائدةً، وحلَّت محلَّها مفاهيمٌ جديدةٌ؛ فلم تُعدَّ تسمَعُ في ميدانِ الاقتصادِ مفاهيمٌ تتعلَّقُ بالبيعِ والشِّراءِ كالبيعِ بأجلٍ وبيعِ الغرَرِ والرَّهنِ والقراضِ والمُرَابحةِ والهَبَةِ والرِّبا والبُيوعِ الفاسِدةِ والبُيوعِ المشروعةِ، ولكنك أصبحت تسمَعُ مفاهيمَ اقتصاديَّةً جديدةً بلغةٍ أجنبيَّةٍ كالفوائدِ والتضخُّمِ والإفلاسِ والعجزِ في ميزانيةِ التسييرِ أو التدبيرِ... وما جرَّ هذا الواقعَ الاقتصاديَّ الجَدِيدَ إلا سُقوطُ الدَّولِ العربيَّةِ في التبعيَّةِ الاقتصاديَّةِ للغربِ، بعد أن تحكَّمتْ دُولُ الغربِ في تسويقِ المُنتجاتِ، وفي أسعارِ النفطِ، وفي الاقتصادِ كُلِّه، بقيمِه وأسواقِه ومُؤسَّساتِه الماليَّةِ ولُّغاتِ التَّخاطُبِ فيه...

المنظور السياسي الذي ينبغي طرحه في سياق تحقيق التنمية :

هذا المنظور هو أن منظومة اللغة العربية بما تتضمنه من قيم دينية وثقافية وأدبية وأخلاقية، هي مناط الأمل في بعث نسق المعرفة العربية وإحيائها وتنميتها، وربطها بالتنمية الحديثة، حتى تصبح العربية بالتعريب للعلوم والتكنولوجيا، تؤدي مهمة فاعلة في التعليم والنمو الاقتصادي والثقافي.

واللغة أداة توليد الهوية وإنتاجها وصناعتها وتنميتها ونشرها واستهلاكها، وأكبر تحدّي تواجهه اللغة هو استيعاب التطور ومواكبة المعرفة الإنسانية المتراكمة والإسهام في إنتاجها وتداولها. فلا تنمية إلا بتوسيط لغة الذات وجعلها محورا وأداة من أدوات رؤية العالم ووسيطا لترجمة العلوم والمعارف، في عالم تزداد فيه نسبة القيمة المعرفية ازديادا كبيرا، حيث أصبحت فيه المعلومات من المواد الهامة المطلوبة، وتساعد تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في نمو اقتصاد المعرفة، وقد أصبح العالم يشهد ازديادا مطردا لدور المعرفة والمعلومات في قطاعات الحياة كلها: فلقد أصبحت المعرفة محرك الإنتاج والنمو الاقتصادي، كما أصبح مبدأ التركيز على المعلومات والتكنولوجيا، بوصفها عاملا من العوامل الأساس في الاقتصاد، من الأمور المسلم بها. وبدأنا نسمع بمصطلحات تُعرب عن هذه التوجهات مثل "سياسة تدبير المعلومات"، و"مجتمع المعلومات"، و"ثورة المعلومات" و"اقتصاد المعرفة" و"اقتصاد التعليم" وغيرها. وإن الكثير من المعلومات أصبحت يُرمز إليها عادة في وعاء اللغة، ومن هنا تبرز أهمية مسألة التعريب وخاصة التعريب في مجالات تكنولوجيا المعلومات.

ويتحقق الانعتاق من الاستلاب اللغوي أيضا بالانفتاح على الثقافات، ولكن بواسطة اللغة العربية، وبأداة التعريب. وتأخذ مسألة التعريب أو سياسة التعريب بُعدا أكبر مما كانت عليه سابقا؛ إذ أصبح التعريب مرتبطا بالسياسة والاقتصاد والتنمية أكثر من أي وقت مضى. ويقدم التعريب في تكنولوجيا المعلومات فرصا اقتصادية هامة للوطن العربي، وأهمية اللغة العربية في تكنولوجيا المعلومات مركزية لأنها تُقدم المعلومات العلمية باللسان العربي، وسيدفع تعريب المجالات العلمية والاقتصادية، باللغة العربية إلى التحديث المستمر من أجل تطوير دور العربية في التداول العلمي والتعليمي والاقتصادي.

ونستطيع في هذا الصدد أن نتصور قيمة اللغة وأثرها في تثبيت هوية وطنية وسياسية واقتصادية راسخة، فوظيفة اللغة في هذا التثبيت لا تُبنى إلا على أساس انتشار اللغة التي يُهيمُنُ مجتمعها على التعليم والثقافة والمعاملات الاقتصادية وعلى السوق العالمية، والمثال البارز على ذلك انتشار اللغة الإنجليزية في العالم وهيمنتها على ميدان العلم والتعليم والاقتصاد، وظهورها للعالم بصفتها ترتبط ارتباطاً

وثيقاً بالمَدَنِيَّةِ وَالْحَضَارَةِ وبمظهرٍ تَجَنَّبِ الْمُعْتَقَدَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ وَالثَّقَافَاتِ الْبَشَرِيَّةِ الْمُتَنَوِّعَةَ، أَي إِنَّ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ انْتَشَرَتْ فِي سَوَاقِ السِّيَاسَةِ وَالْاِقْتِصَادِ وَهَيَمَتَتْ عَلَيْهِ وَزَعَمَتْ أَنَّهَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَسْتَحُوذَ عَلَيْهِ فِي ظِلِّ سِيَاسَةِ الْعَوَلْمَةِ وَالتَّرْفُوعِ عَنْ كُلِّ خُصُوصِيَّةٍ؛ لِأَنَّ الْخُصُوصِيَّاتِ الثَّقَافِيَّةَ فِي نَظَرِ الْهَيْمَنَةِ الْغَرِيبَةِ عَائِقُ مِنْ عَوَائِقِ النَّمُوِّ الْاِقْتِصَادِيِّ الْعَالَمِيِّ، أَي إِنَّ الْهَيُوءَةَ الْخَاصَّةَ تَتَعَارَضُ، فِي نَظَرِ دُعَاةِ انْتِشَارِ اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، مَعَ انْتِشَارِ اِقْتِصَادٍ حَرٍّ وَمَتَطَوِّرٍ. وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْاِقْتِصَادَ الْعَالَمِيَّ الْجَدِيدَ يَسْتَلْزِمُ التَّجَانُسَ اللُّغَوِيَّ وَالتَّسْوِيَةَ الثَّقَافِيَّةَ، وَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْاِقْتِصَادِيُّ رِيْتشارْد هَاريس عِنْدَمَا زَعَمَ أَنَّ اللُّغَةَ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ هِيَ فِي الْوَاقِعِ اللُّغَةُ الْمُشْتَرَكَةُ لِلْاِقْتِصَادِ²، وَلَكِنَّ هَذَا الزَّعْمَ لَا يَمْنَعُ مِنَ الْقَوْلِ إِنَّ مَوْقِعَ بَعْضِ اللُّغَاتِ سَيَتَنَاوَمُ بِتَدْرِيحٍ وَسَتَزْدَادُ شَعْبِيَّةُ تِلْكَ اللُّغَاتِ تَبَعاً لِتَوْسُّعِ ثَقَافَاتِ الْنَاطِقِينَ بِهَا، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ تَنْتَشِرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ دَوْلِ الْعَالَمِ بِمَا فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الدَّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ، فَإِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ بِوَصْفِهَا لُغَةً الْهَيُوءَةِ وَالثَّقَافَةِ سَتَتَنَاوَمُ بِاسْتِمْرَارٍ مَا دَامَ عِدَدُ الْنَاطِقِينَ بِهَا فِي نَمُوٍّ وَانْتِشَارٍ. وَلَكِنْ بِشَرَطِ تَنْمِيَّتِهَا وَتَطْوِيرِهَا وَاسْتِعْمَالِهَا فِي الْمَحْتَوِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالرَّقْمِيَّةِ.

أ.د. عبد الرحمن بودرع



دكتوراه الدولة في علوم العربية واللسانيات، جامعة محمد الخامس، الرباط (1999م) / نائب رئيس مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية بمكة / خبير معتمد لدى الرابطة المحمدية للعلماء. بالمغرب / من مؤلفاته:

- من ظواهر الأشباه والنظائر بين اللغويات العربية والدرس اللساني المعاصر، نشر حَوَلِيَّاتِ الْآدَابِ وَالْعُلُومِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، جامعة الكويت، 2005م
- من قضايا التَّطَرُّبِ لِللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، نشر حَوَلِيَّاتِ الْآدَابِ وَالْعُلُومِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، مجلس النّشر العلمي، جامعة الكويت 2007م.
- الأسس المعرفية للغويات العربية، دار وُزْدَ لِلنَّشْرِ، الْأُرْدُنْ، ط.1، 2013م
- الخطاب القرآني ومناهج التأويل، نشر الرابطة المحمدية للعلماء المغرب، 2013
- في تحليل الخطاب الاجتماعي السياسي، قضايا ونماذج من الواقع العربي المعاصر، دار كنوز المعرفة، الأردن، 2014م.
- في اللسانيات واللغة العربية، قضايا ونماذج، دار كنوز للنشر الأردن، 2016
- النص الذي نحيا به، قضايا ونماذج في تأسك النص ووحدة بنائه، طبعة جديدة من دار كنوز المعرفة، الأردن، 2019م.

² جون جوزيف، اللغة والهوية، قومية-إثنية-دينية، عالم المعرفة، ع: 342، أغسطس 2007م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ترجمة عبد النور خراقي، ص: 245.